

القسم الاول

وصف جزيرة صقلية و مناخها و عمرانها

معقل طبيعي ، صنعته يد الله في منتصف بحر الايض المتوسط ، فقسمة الى شطرين شرقي وغربي ، وهيمن على حركة المرور بينهما ؛ وحصن حصين ارتكز بين القسمين البارزين من قارتي اوروبا وافريقيا حيث تجابه شبه جزيرة شريك ، في حياة تحد ظاهر شبه جزيرة فلورية ، كأن كلا منهما تريد ان تمتد ذراعها نحو الاخرى ، فتقوم بينهما جزيرة صقلية ، لتكون في بعض الاحيان حكما ووسيطا ولتكون في كثير من الاحيان جسراً يعبر عليه اهل الجنوب الى اهل الشمال او ينحدر منه اهل الشمال الى اهل الجنوب ، حسب القوة والاستعداد ، ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض .

شكل مثلث تكاد تتساوى اضلاعه ، اطلق عليه الاقدمون من اجل ذلك اسم « اترينا كريبا » اي المثلث ينصله بحراً عن فلورية (بايطاليا) مضيق مسينا وهو لا يكاد يجاوز ٣ كيلومترات ، ويفصله عن البلاد التونسية بممر صقلية ، وعرضه ١٢٠ كيلومترا ؛ ويمسح هذا المثلث الصقلي ٢٥٤٦١ كيلومترا مربعا .

فاذا نحن قمنا بحركة طواف حول الجزيرة الصقلية مبتدئين سيرنا من مدينة مسينا ، رأينا منذ النظرة الاولى ان هذه الجزيرة تكاد تكون مقطعة من ايطاليا حيث تستمر فيها ، في اتجاه واحد جبال الابينان ، وتكاد تستأنف منها في نفس ذلك الاتجاه نفس تلك الجبال في الشمال الافريقي ، متخذة لنفسها اسم « الاطلس التلي » ولا بسم الرائي يومئذ الا الاقتناع بان افريقيا واروبا كانتا متصلتين في غابر الازمان قبل عهد التاريخ ، بممر فلورية ، صقلية ، شبه جزيرة شريك ؛ ولقد

صدق الله العظيم اذ يقول : « او لم ير الذين كفروا ان السماوات والارض كانتا رتقا ففتقناهما . »

ترى اثر خروجك من مسينا ، لاول وهلة ، كتلة هائلة من الصخر والتراب والمعادن المختلفة ، ترتفع الى غنان السماء قمتها ، وينزل الى قاع البحر اصلها ، تلك هي فلقان « الاتنا » او جبل النار ، حسبما تسميه كتب التاريخ العربي ، وانه ليشور في بعض الاحيان ، فيخرج من جوفه في اصوات كهزيم الرعد القاصف حمما ونيرانا متقدة ودخانا كثيفا ، فلا يبقي حواليه ولا يذر ، يحطم المدائن والقرى والداكر ويهلك الحرث والنسل ؛ ثم لا تكاد تنقضي ثورته حتى يعود الصقليون الى تجديد ما حطمته النيران وما غمره الحما المسنون ، فكان المعركة هناك خالدة مستمرة بين قوى الطبيعة وبين الانسان ، وكان الله سبحانه وتعالى اراد ان يقيم منهما مثالا دائما للجلد والثبات ، والتغلب على العقبات والصبر على النائبات فاذا نحن أمحدنا من مدينة مسينا نحو الجنوب رأينا ساحلا صخريا ، لا نقوه فيه ولاجون ولاخليج ، ويستمر كذلك الى مقربة من مدينة قطانيا ؛ ومن هناك يتغير هيئة الساحل فيغدو رمليا لطيفا ، وترى فيه مصب وادي « ليريتو » ثم يبرز الى البحر في جمال رائع ، راس اكروتشي .

و من ثم نستمر في انحدارنا صوب الجنوب ، فنجد عروص صقلية مدينة الفن والجمال ، والصيت التاريخي الرائع ، والذكريات المجيدة ، سرقوسة ، واننا لا نذكرها حتى يتراءى لنا شبح بطلها العظيم ارخيدس ^(١) الاغريق حيث اجتمع

(١) يكاد يكون اكبر علماء البشرية على الاطلاق ولد بسرقوسة وقتل بها (٢١٢) — (٢٨٧ ق م) من اهم اكتشافاته - الثقل النوعي وان اي جرم دخل في الماء نقص وزنه بمقدار ما ازاحه من الماء ؛ وقد اكتشف هذه القاعدة الخالدة التي كانت اساسا لعامة اكتشافات اخرى وهو يستحم ؛ فاخذ الوجد بنشوة الاكتشاف

العلم والوطنية والتضحية في ذهن واحد جبار ، فهو الى جانب اكتشافاته العلمية التي تعد فتحا للعصر البشري نراه يوالي اختراع آلات الدفاع لصد غارة الرومان عن وطنه ، وقد جندله اخيرا سيف الطفيان بيد احد الوحوش الرومانيين .

ومن سرقوسة الى رأس باسيرو ، يتكون من الساحل شكل هلال ، ليس فيه ما يستحق الذكر ، وهناك ينتهي الساحل الشرقي من صقلية ؛ ويبلغ عمق البحر المتوسط حوالي ذلك نحو ٣٦٠٠ مترا ، وناخذ طريقنا صاعدين مع الساحل الجنوبي في حركة تدريجية وعلى خط يكاد يكون مستقيما ، وهناك ينصب وادي سالسو ؛ ثم تقوم مدينة جرجنتى ذات الذكر الطويل في تاريخنا الاسلامي الصقلي ومن ثم نزيد ارتفاعا نحو الشمال الغربي فنرى سواحل كثيرة المياه ، وافرة المراعي والمروج ، حيث تقوم مدينة مرصالا ذات الرقيق الرقيق ، وبعد ذلك نصعد صوب الشمال حيث نجد مرفأ طرابنة اللطيف الشهير والذي سيمر بنا ذكره كثيرا اثناء البحث التاريخي .

عند راس كستيل ماري ، ننحني الجزيرة ويتبدى الساحل الشمالي على خط مستو يمتد من الغرب الى الشرق فنراه ساحلا صخريا جبليا ونلاحظ فيه بادي ذي بدء خليجا تام الاستدارة بهي الشكل ، بديع الاطار هو خليج كستيل ماري ومن عجب انه لا يحتوي الا على بلدة الكانو الصغيرة وبعض اكواخ لصائدي الامماك ، فان خرجنا منه وجدنا راس دي قالو ومن عليائه نشرف على جون مدينة بالرمه البديعة الطيبة عاصمة صقلية الاسلامية ومركز ادارتها الى يومنا هذا ثم نستمر في سيرنا مع سواحل صخر وحيال حتى نصل مدينة مسينا ذات البهاء والجمال والحركة المستمرة والعمران المتواصل ، ومنها ابتدانا سيرنا حول سواحل وخرج من حمامه عاريا يجرى في طرقات سرقوسة ويصيح بالكلمة المأثورة Eureka, Eureka اي وجدت ، وجدت .

الجزيرة ؛ فلنتجه الان بانظارنا فاحصين دواخل الجزيرة باحثين في جبالها وسهولها وانجادهما واغوارها .

الجبال : ان جيل الاتنا ، هو اول ما يستحق الذكر ويستجلب النظر في صقلية ، فارتفاعه يبلغ ٣٣١٣ مترا ، من ذلك كان اكبر جبال النار في اوروبا ولقد ادركه الهرم من قديم العصور فكلل الثلج هامتة بمشيب سرمدى ؛ لكن لم يكن ذلك بمانع لثورة ضميره ، والقاء ما في قرارة نفسه امام العالم ؛ امام ساحته فقبله نحو ١٢٠٠ كيلومتر مربع ويمكن الصعود الى اعلى قمته بكل سهولة حيث الاقواء الرهيبة التي يخرج منها على الداوم دخان يكون تارة لطيفا وطورا كثيفا ؛ وتسمع منها زحجرة نار الله الموقدة وهي تتميز من الغيظ ، فكان الصاعد هنالك يشرف من على جنة جهنم الجراء او يرى عينة منها على الاقل .

والاتنا امة مستقلة برأسها لا تكاد تتصل باى سلسلة من الجبال الصقلية الاخرى .

في شمال الجزيرة تمتد سلسلة من الشرق الى الغرب وهي جبال صخرية جرداء قلما رايت عليها اخضرار نبات او ابتسمت في وجهك منها زهرة ؛ تتكون طبقتها الخارجية من حجارة كلسية ، ومن انواع الرخام الرفيع ؛ وهذه السلسلة وهي سد طبيعي يحمي الجزيرة من غارات الشمال ، ويقيها رياح الشمال الباردة ، يبلغ ارتفاعها نحو الالف متر ، وهي تعتبر امتدادا من وراء مضيق مسينا لجبال الابنين بايطاليا ، وتعتبر ايضا ، تمهيدا لجبال الاطلس كما اسلفنا ؛ ومنها تتكون بعض جبال فرعيه ، تنحدر من اعلى الجزيرة الى اسفلها ، اهمها الجبال التي ارتفعت فوقها مدينة قصر يانة ، و يبلغ ارتفاعها نحو ٩٩٠ مترا ، والجبال التي تنحدر صوب مدينة جرجنتي ، واسمها جبال مادونيا ، وارتفاعها يبلغ ١٥٨٦ مترا ؛ وفي هذه الجبال ثروة ذريعة من الخزف ، والملح المعدني ، والجص .

و ما بين هذه الجبال ، نجد وهاداً وانجاداً ، وسهولا ضيقة خصبة وغابات قليلة قفرة .

المياه : ان كانت ارض الجزيرة تختلف بين الشمال والجنوب ، فاوديتها وانهارها تختلف مثل ذلك ، فالساحل الشرقي القاحل ، لانكاد تجد به الا اودية ضئيلة غير مستقيمة السير ، ومنها مالا يبلغ عرضه اكثر من متر واحد ، يجف اغلبها ابان المصيف ؛ او هي تلوح كمثل اطلال خاوية ؛ كبافي الوشم في ظاهر اليد ؛ هنالك واد واحد يستحق الذكر ، هو وادي القنطرة ، وقد احتفظ باسمه العربي هذا ؛ و يبلغ طوله ١١٦ كيلو متراً ؛ ويروي حوضا مساحته ٤٣٨٩ (كـم) مربع .

اما الساحل الجنوبي ؛ فاوديته غنية بمياهها صيفا وشتاء حيث تغذيها سلسلة الجبال الشمالية ؛ واهم هذه الاودية : وادي سالسو ، وطوله ١٤٤ كيلو متراً وحوضه نحو الالف (كـم) مربعا .

وبالجزيرة بعض بحيرات ذات اهمية اكبرها شانا بحيرة لتيني في مقاطعة سرقوسة ، ومساحتها ١١٩ كيلو متراً مربعا ، وتليها بحيرتا برغوسا وبالتشي اما الامطار ، فمعدل نزولها في السنة هو ٧٦٠ ملترا ، والايام الممطرة تبلغ ١١٢ يوما في السنة .

المناخ : خص الله هذه الجزيرة الطيبة ، بحكم موقعها ووضعيتها الجبال فيها بمناخ جميل وهواء معتدل وجو صاف بحيث انه ليس في قارة اوروبا ما يعادلها من حيث اعتدال الطقس و لطف الهواء .

فصل الشتاء فيها ليس بقارس البرد ، يتلدى من شهر نوفمبر وينتهي عند شهر مارس مع انقطاع الامطار غالبا في شهر جانفي ؛ وخلال شهري النمو في افريل وماية ينزل من السماء ماء غزير هو قوام حياة البلاد اذ يذكي حركة المزروعات والمفروسات .

اما فصل الصيف فهو كذلك لطيف معتدل ما لم تهب رياح السموم ، ترسلها افريقيا تحية غير لطيفة الى هذه الجزيرة ؛ لكن السموم لا تزيد مدتها هناك عن ثلاثة ايام متوالية ؛ ومن غرائب عاداتها - ولما اذا لا تكون للرياح عادات كمادات البشر ؟ انها تهب في شهر افرل بصفة خاصة و عند اختلاف الفصول الاربعة بصفة اعم فتأتي معها بجيش ع-رمرم من الغبار والرمل وتبلغ عندئذ درجة الحرارة في بالرمة وسوادها نحو ٣٧ درجة .

ما معدل الطقس فهو في بالرمة نحو ١٧ درجة ، واقصى ارتفاعه الطبيعي هو ٢٦،١٢ درجة ؛ واقصى نزوله زمن الشتاء هو ١١ درجة ، من اجل ذلك سميت تلك الناحية « بلاد الربيع الابدی » ومن اجل ذلك كانت مستقر الملوك والكبراء والحكام منذ العصور القديمة .

الثروة الطبيعية : اهم النتائج الطبيعية التي اشتهرت بها الجزيرة هو الكبريت le Souffre و وجد غالبا في مقاطعات الجنوب الشرقي ؛ في قاطانا سبتا ، وجر جنتي وقطانيا و كذلك حول مدينة بالرمة ؛ وبلي ذلك في الاهمية الملح المعديني المستخرج من طبقات الارض ، والرخام بمختلف انواعه الرفيعة والعمادية ، وحجارة الكلس والجص والقار بنوعيه .

ولقد كانت الجزيرة ايام الحكم الاسلامي وقبل ذلك مكتسية بالغابات الشاسعة الغنية التي تنتج انواعا من الاخشاب الصلبة المستعملة في بناء السفن والمراكب الا ان سوء الادارة بعد ذلك وعدم التبصر بعواقب الامور وترك الحبل يجري على الغارب دون مراقبة وانتباه ؛ قد افقر الجزيرة او كاد من غاباتها فاصبحت لا تحجب الا مقدار جزء من عشرين من ارضها .

اما الثروة الفلاحية فتلك هي نعمة الله الكبرى على الجزيرة وذلك ما جعلها الى جانب مناخها الحسن وموقعها المنيع مطمح انظار الفاتحين منذ قديم العصور

من حسنات المسلمين الخالدة بتلك الجزيرة انهم نقلوا اليها من شمالنا الافريقي ولا يزال يوجد هنالك وافرا ، النخل الباسق الذي ينتج الرطب الجنى واشجار الليمون وال نارنج والبرتقال و الموز والزيتون .

و الجزيرة تنتج كميات عظيمة من القمح والشعير والقطاني والكتان وتعتبر بعد البلاد التونسية اكبر منتجي زيت الزيتون .

اما اعنابها فذات شهرة بزت شهرة اعناب اليونان ؛ وتنتج صقلية خمورا وافرة تعتبر احسن خمور اوروبا واجودها .

وان كانت الماشية بالجزيرة غير ذات اهمية تشمل قطعان الغنم والبقر والماعز والختاير ؛ فان سواحلها وافرة الغنى بما ينتجه صيد البحر من اسماك مختلفة الانواع يستهلك الاهلون في طعامهم الكثير منها ؛ ويصبر اغلبها ويوضع في العلب للتصدير كالتن والسردين وما اشبهها ؛ ونشأت عن ذلك صناعة ذات بال .

السكان — لا نريد ان نخترق غياهب المصور ؛ حيث يختلط التاريخ

بالخرافات وتندمج الحقائق في الاساطير ؛ لكي نبحث عن سكان صقلية الاصليين ؛ وهل كانوا في العصر الحجري من اقوام الشمال انحدروا نحو الجنوب ؛ او من اهل الجنوب صعدوا نحو الشمال ايام كانت اوروبا وافريقيا قطعة واحدة ، وصقلية اداة وصل بينهما .

وان كان لي ان ابدى رأيا في الموضوع ؛ لا يعتمد الا على الحدس والتخمين فهو ان سكان المغاور والكهوف الذين عمروا صقلية انما صعدوا اليها من افريقيا ولم ينحدروا لها من اوروبا ؛ ذلك ان مناخ صقلية لطيب ومراعيها اخصب ومياهها اوفر من افريقيا ؛ والانسان الاول في فجر حياته كان يبحث عن كل ذلك ويسير نحوه حيثما وجده ؛ وعليه فسكان صقلية الاولون يكونون فرعا من اجداد البربر سكان الشمال الافريقي .

انما الذى اثبتته التاريخ بصفة قطعية ، هو ان سكان صقلية في العهد التاريخي كانوا من قوم « الصيقول » وهم امة نشأت في بلاد البلقان ما بين مقدونيا وبلاد الاغريق ؛ ثم استوطنوا ايطاليا ومنها عمروا الجزيرة التي اشتقت يومئذ اسمها من اسمهم (صيقول - صقلية) فابتلعوا من سبقهم بها من الشعوب الاخرى . ثم امت الجزيرة جموع وافرة العدد من جزيرة اقريطش ، واخيرا هاجر اليها قوم غنير العدد من الاغريق ، فعمروها وهذبوا حواشيها ، ومدنوها على غرار مدينتهم اللامعة الزاهية ، وكانت يومئذ نبراس العالم المنير ؛ فابتلعوا في بودنتهم كل العناصر الاخرى ؛ ولم يبق بالجزيرة الا الاغريقي الاصيل او الاغريقي الصيقولي الاصل .

اشتعلت نيران الحرب البونيقية بين روما وقرطاجنة فوق اديم الارض الصقلية فامتلات الجزيرة بالرومانيين والقرطاجنيين وبالتابعين وتابع التابعين لكل من الغريقين من عبيد وجند مرتزق شمل اخلاطا من شعوب البربر والقوط والوندال .

ثم ان الفتح الاسلامي قد طبع البلاد بطابعه الخاص ؛ فترك بها من سلالات العرب والبربر ما لا يحصى اثره او تنعدم شمائله كما ترك اهل الشمال الجرمانيون اثارهم كذلك بينة واضحة كما تركها من بعدهم الجرمانيون الذين اسسوا دولة شواب هنالك .

فالعصر الصقلي اليوم مزيج من شعوب الشرق بين يونان وكنعانيين وعرب وبربر ؛ ومن لاتينيين وجرمانيين . ولا تزال بالجزيرة جماعة لا شك في اصلها الكنعاني تتكلم لسانها العربي المحرف من غرار اهل مالطة ولا تزال تحتفظ على طقوس من دينها الوثني القديم .

ولقد انتج اختلاط هذه العناصر وتساكنها بله وتنازعها البقاء ثم تشكل بقاياها

في صفة امة قوما اقوياء البنية ، صار القامة ينحفي الاجسام لا يزيد معدل الطول فيهم عن ميتر و ٦١ في السواحل وميتر و ٥٠ في داخل البلاد .

ولقد تغنى بعض الشعراء بجمال المرأة الصقلية كما ضربت بجمال المرأة الاسبانية الامثال . انما كلتا المراتين لا تميز بشيء عن المرأة المتوسطة الاعراية ببلادنا .

وليس للرجل الصقلي ما يميزه كثيراً عن الرجل الاسباني ، بل انك في اغلب الجهات تكاد تجده اسبانيا خالص السمحة : عين سوداء لماعة وبشرة سمراء قاتمة ؛ وانف اقنى وخدود غائرة فهو بلا شك اقل جمالاً من العربي الصميم . وفي كثير من الجهات نجد الشعر الكستنائي والعيون الشهل وتجد احياناً على قلة الشعر الاشقر والاعين الزرقاء وذلك في الاوساط المثيرة الراقية ؛ مما يدل دلالة واضحة على انهم من بقايا الترمان والجرمانين .

والصقلي بصفة عامة متوسط الذكاء ؛ ويكون ذكاًؤه احياناً دون المتوسط وهو غير مبال اعلم ولا تفن ؛ وتغلب الامية على البلاد بصفة مذهشة ؛ فهناك تجد الخرافات موطناً خصباً والاعتقاد في القوى الطبيعية ومفعول السحر عظيم ؛ والعادات الوثنية قد تركت هنالك اثرأ لم تستطع محوه يد الاسلام ولا بد النصرانية .

المجتمع : سكان صقلية اليوم يبلغون نحواً من اربعة ملايين نسمة يتكلمون نوعاً من اللغة الطليانية المحرفة ليست بذات رقة ولا جمال ويعيش الناس هنالك منقسمين الى طبقات اجتماعية منفصل بعضها عن بعض ولم تستطع ايدي الاصلاح القليلة ان تغير من ذلك شيئاً محسوساً فالسواد الاعظم من الناس يعيش هنالك مع السلطة الطليانية معضوم الحقوق مهيبض الجناح فاقدأ كل وسائل الحياة الشريفة . هنالك طبقة مستعمرة غنية ؛ تملك الارض وما عليها، تسرف في الترف وتنعم

بلذائد الحياة وتمتع بسكنى القصور الفخمة والحداثق الغناء ؛ وترتاد الاندية الفاخرة ؛ ثم هي تدبر مزارعها الشاسعة مصدر ثروتها ومنبع غناها بواسطة نظار ماجورين ؛ وعملة فلاحين لهم عليهم اغلب الحقوق التى كانت للامراء الاقطاعيين فى القرون الوسطى ؛ وكانت هذه الطبقة قبل النظام الفاشيستي واثناه ؛ ولا تزال من سوء الحظ الى يومنا هذا تؤلف كتلة قوية تخضع لارادتها رجال الحكومة ونواب الامة وشيوخها ايام الحكم البرلماني ؛ وكثيراً مامد هؤلاء الطغاة ايديهم لعبيدهم ؛ وساعدوهم على القيام بسافل المآرب مقابل المساعدة التى يلقونها منهم لتنفيذ غايتهم من مقاومة الحكومة ان ارادت اصلاحاً لا يرضونه ؛ ومن التعرض لنزع ملكية الارض لفائدة صندوق الدولة ان تراكت الضرائب عليهم ؛ وغير ذلك مما يطول ذكره .

ولقد شكل حثالة الصقليين جمعية سرية اسموها « لامافيا » انتشرت فى انحاء البلاد ونشرت شرورها وآثامها ؛ ولطخت بالدماء البريئة ارجاءها ؛ خدمة لما رب سافلة وترضية لمطامع نفسية دنيسة .

وتحت هذه الطائفة فى السلم الاجتماعى ؛ توجد طبقة المديرين والمحصلين والسامسة الذين يباشرون الامور وساطة بين كبار المستعمرين والعملة . واخيراً فى اسفل الدرجات ؛ تجد طبقة العمال الفلاحين و هي تكاد تكون من طبقة الرقيق ؛ لا يرى الرائي لها مثيلاً لا فى روسيا قبل ثورتها الشيوعية او فى بعض جهات الشمال الافريقى .

فالطبقات العاملة ، ليست لها مساكن صحية ، ولا تتقاضى من الاجر الا ما لا يكاد يسد الرمق ؛ وليس لها من اللباس الا ما يكفى لتمييزها عن بقية الحيوان ثم تراها بعد ذلك ترزح تحت وطأة الضرائب العامة التى تصيب المواد الاولية الضرورية لحياة الانسان ؛ فالصقلي افقر انسان فى رعوية ايطاليا لكنه يتحمل اربعة

اضعاف ما يتحمله الطلياني من الاعباء ؛ ثم هو لجهله وقلة ادراكه ؛ يطعم السادة الاقطاعيين طاعة عمياء ؛ ياتمر طوعاً باوامرهم وينتهي بنواهيهم ؛ كانه يعتقد دينياً ؛ بان الله خلعه من اجل خدمتهم .

اما طبقة العمال في المناجم والمعادن ، وبقية الصناعات الاخرى ؛ فقد تمكنت بفضل اجتماعها وتغلغل الافكار الاشتراكية فيها ؛ من تغير حالها والاحراز على بعض الحقوق ؛ ولقد جنحت في بعض الاحايين لفكرة الشيوعية ؛ الى ان ضربتها الفاشستية فسوت بينها وبين بقية العمال في ايطاليا تحت لواء طغيانها . واستمر انين العمال خافتاً ؛ الى ان اقلت شمس الفاشستية ؛ وهاجمت قوات الحلفاء من انكليز واميركيين ارض الحزيرة فلم يحرك اهلها ساكناً ؛ بل تقبلوا الغاصبين بصدور رحبة ملت الحرب ؛ وقلوب مبتهجة سئمت الجور والطغيان ؛ وكانهم قالوا ان ليس في الامكان اسوأ مما كان ؛ فرحبوا بالقادم الجديد ؛ عله يصلح ما افسده الاقدمون .

